على هامش النقد

الأدب «المهموس»
والأدب الصادق
الأستاذ سيد قطب

أرجو أن تكون هذه الكلمة هي الكلمة الأخيرة عن « الأدب المهموس » . وبرنامجها يتناول ثلاثة أغراض :

فأما الغرض الأول : فهو أن الأدب المصري لم يخل من صور من ذلك اللون المحبب إلى الأستاذ « مندور » ، وهي صور منوعة وأكثر سلامة من النماذج التي استهوته هناك . ولكن مجلته فيما يصدر من الأحكام ، وعدم انفساح الوقت أمامه ليدرس قبل أن يحكم ، وتشيعه الواضح المفهوم لشعراء الهجر ... هذه الأسباب جميعها جعلته ينادي بأن الشعر المصري متخلف قروناً عن شعر المهجر ، وأنه شعر خطابي لا يستهويه

وأما الغرض الثاني : فهو أن هذا اللون من الأدب ، ليس هو اللون الوحيد الذي يستحق الإعجاب ، وقد لا يكون أفضل الألوان ؛ فالتشيع له إلى أقصى الحدود ، وإنكار ما عداه من ألوان الأدب الأخرى ، مسألة « مزاج » خاص ، له دوافعه الخاصة ، وليس حكماً أدبياً يرتكن إليه النقد الفني

وأما الغرض الثالث : فهو الحديث عن « النماذج البشرية » الحبيبة إلى الأستاذ مندور وعلاقتها في « مزاجه » بحكاية « الأدب المهموس » من بعض النواحي . وهو ما أرجو أن يتنسح له المجال في هذا المقال

* * *

ليس من الضروري أن يستتبع الممسُ الأسى ، وليس من الضروري أن يكون الأسى متهالكا ليكون حبيباً إلى النفوس . ولكننا — مع هذا — نعرض الأستاذ مندور صورة من صور الشعر الهامس فيها الأسى وإن لم يكن فيها التهالك ، لشاعر مصري كبير تحت عنوان « السلو »

أذن الشفاء . فما له لم يحمد ؟ ودنا الرجاء وما الرجاء بمسعدي
أعدوت أم شارفت غاية مقصدي ؟

برد الذليل اليوم وانطفأ الجوى وسلا الفؤاد فلا لقاء ولا نوى
وتبـــدد الشملان أي تبدد

قذفت بنا الأيام في غمراتها ورمت بنا في التيه من فلواتها
فردين لم يتلاقيـــا في موعد

لا أنت أكرم من أحب ولا أنا سلوا الكدون الناس في هذي الدنى
تفدين حبي بالحيـــاة وأفتدي

ما كنت أحسب أن أبيت عشية أبدَ الزمان ولا أراك نجية
تحت الظلام ولا أضيق بمرقدي

يأتي الأصيل ولا تراقب وعده ويلي الظلام ولا تحاذر مهده
وإذا انقضى يوم فليس : إلى غد

وإذا رأيتك في الطريق فعابر يجتاز عابرة ، وطرف ناظر
يرنو لناظرة تروح وتغتـــدي !

عجباً لغابرنا وحاضر أمرنا ! أكذا تمرّ بنا معالم عمرنا
وتزول حتى لا دليل لمهتـد ؟

هذي الشفاء فهل على بسماتها أثر يشف اليوم عن قبلاتها
في ذلك الماضي الذي لم يبعد ؟

هذي العيون فأين من نظراتها لمسات رحمتها ووحي هناتها
لم يبق من خبر ولا من مشهد !

عليهم بانتظام ، هذا إلى حضور أربعين حفلة تمثيلية بالمجان موزعة على الفصل التمثيلي السنوي . والعجيب في ألمانيا أن برلين نفسها كانت متخلفة في الحركة التمثيلية وراء جميع المدن الألمانية الكبرى فلم تكن تفرض هذا الذوق الـ Metropolitan أو العاصمي الذي تفرضه العواصم الأخرى على المدن الأقل شأناً في المملكة ؛ فكان لمدينة كولونيا مسرحها الشعبي العتيد الذي كانت بلديتها تمنحه سنوياً مبلغ خمسة وعشرين ألفاً من الجنيهات ؛ وكذلك كان لمدينة ثورن ، وهي من أصغر المدن الألمانية ، مسرحها الشعبي الذي كانت تمنحه بلديتها مبلغ ألف جنيه سنوياً . وقد مثل مسرح كولونيا رواية المعركة لجولدورثي الإنجليزي فربح منها أضعاف ما ربح في انجلترا .

دمشق فخري

ذكرى تودد فى الحياة سقيمة ... وتعيش فى كنف الهوان يتيمة
وتمر ذاهبة كأن لم توجـــد

ترى يستطيع الأستاذ مندور أن يحس بهذه القطعة وما يغشى جوها كله من أسى شفيف وهمس عميق ؟ ثم تراه حين نقلب الصفحة الأخرى على سورة هامسة ذات لون آخر ، يستطيع كذلك أن يحس بالصفحتين المتقابلتين ؟

إذن فليسمع هذه المقطوعة الأخرى لنفس الشاعر الكبير ! تحت عنوان « الكون جميل »

صفحة الجو على الزر ... قاء كالخـد الصقيل
لمسة الشمس كعين ... لمعت نحو خليـل
رجفـة الزهر كجسم ... هزه الشوق الدخيل
حيث يمت مروج ... وعلى البعد تخيـل
قل ولا تحفل بشيء ... إنمـا الكـون جميل

ونلمح هنا « ألفة » عميقة بين الشاعر وبين الطبيعة ، هى ألفة الحبيب العـاشق المتفتح الحس والنفس ، المنهوم القلب والجوارح ؛ ونكاد نلمحه متسع الحدق مفغور الفم ، متوفز الإحساس ، وهو ينشق بل يلتهم ما فى الطبيعة الحبيبة من روح وجمال

قل ولا تحفل بشيء ... إنمـا الكـون جميل

قلها وأنت تستنشق ملء رئتيك ما فيه من روح وحلاوة ، ثم تستريح بنفس طويل ! . قلها فإنها لحظة تجلو روح ذلك الكون الجميل

وقصة ثالثة ذات لون ثالث ، لا هو بالأسى الشفيف ، ولا هو بالحس المنهوم ؛ ولكنها اللفتة الآسفة ، والحيرة الخاطفة فى « الحلم الضائع » لشاعر من شعراء الشباب المصريين :

أين حلمي وغرامى ونشيدى ؟ ... أين آمالىَ فى الأفق المديد ؟
أين دنيـــاى التى جسَّمتها ... فى خيالى ، فتوارت من بعيد !

ومضة كالبرق مرت فى حياتى ... أيقظت قلبى وحشَّت أمنياتى
وكما يخبو شـــعاع بارق ... لم أجـد حولىَ إلا الظلمات

أين عش كان فى نفسى دفيئاً ... أين أفق كان فى قلبى وضيئا
وحيـاة عشتها فى خاطرى ... قبل أن تولد ، نشوان هنيئا ؟

أهو حلم أم ترى كان عيانا ... عشـنا النائم فى دفء هوانا
وسياحات لنـــا فى عالم ... نحن أبدعناه فى الحلم فكانا ؟

أين يا أحلام واديك الجميل ؟ ... أين ظل عند واديك ظليل ؟
أين ؟ فالجـدب يغشى عالمى ... وخريف العمر والصمت الثقيل

أين أين ؟ كل ما قد كان فات ... لم تعد فى النفس إلا الذكريات
وحنين فى الحنايا موغل ... وظلام غارق فى الظلمـات

ولدى من هذه الصور عشرات ، ولكن الفراغ محدود ، فحسبى هذه الصور الثلاث من الشعر المصرى المتخلف قروناً ، لأنه ليس من عمل شعراء المهجر لسوء الحظ !

* * *

وبعد . فليس هذا اللون من الشعر — على تعدد صوره — باللون الوحيد الذى يعجب الناقد الفنى ذا الآفاق الوسيعة ، والنفس الرحيبة . وقد لا يكون أفضل الألوان حين يكون المقياس هو صدق التعبير عن الحياة ، لا إرضاء الأمزجة الخاصة المتأثرة بماض خاص

ومن الذى يقول : إن الهمس والوسوسة فى الطبيعة أصدق من الجأر والجهر ؟ إن بغام الظباء ليس أصل فى الحياة من زئير الآساد ؛ وإن خرير الجدول ليس أعمق فى النفس من هدير الشلالات ؛ وإن وسوسة النسيم ليست أوقع فى الحس من زمجرة العاصفة

والموسيقى ؛ ما شأنها فى هذا المجال ، (وهو خاطر جال فى نفس الموسيقى المصرى المبدع الأستاذ الشجاعى بهذه المناسبة) أنقضى مثلاً على موسيقى « واجنر » وكثير من سيمفونيات بتهوفن وسواه فى سبيل الهمس الذى تلجأ إليه الطبيعة مرة ، كلما لجأت إلى مختلف النغمات والطبقات مرات !

كل مقاييس الفنون تنكر أن يكون الهمس أجل أو أصدق أو أعمق . وإن هو إلا « حالة » من حالات ، بل حالة لا تلجأ إليها الطبيعة والحياة إلا فى فترات الراحة من عناء الضجيج ! وليست الحياة كلها راحة إلا أن تكون حياة مزاج خاص يرى الدنيا من زاوية واحدة صغيرة !

ألا وإن الدنيا لحفية بالهامسين والجاهرين وإنهم لأبناؤها المخلصون فى جميع نغماتهم وطبقاتهم ما داموا صادقين . وإن هذه